مبادئ

علم اصول التفسير

بقلم

الحاج محمد عبده ڤباجه

مدير

معهد الفرقان

ڤاري ڤاري

. الكراسة الأولى .

PENGANTAR ILMU TAFSIR

Oleh :

H.M.ABDUH PABBAJAH

Pare-Pare

Jilid Pertama

مبادئ
علم أصول التفسير

بقلم

الحاجّ محمّد عبده قبّاجه

مدير

معهد الفرقان

فاري فاري

. الكراسة الأولى

١٥ - ٣ - ١٣٩٨هـ

Stencil A.PASBAJAN

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وبه نستعين على أمور الدنيا والدين ، اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد النبيّ الأُمّيّ ، الذي أرسلته رحمةً للعالمين ، ومُعَلِّماً للناس أجمعين ، وعلى آله وصحبه الّذين اتّبعوا سبيلَه فكانوا من المفلحين

وبعد فهذه دروس في مبادئ علم أصول التفسير وضعتُها وجعلتها للطلبة وطالبات « كليّة التربية للجامعة الإسلاميّة الحكوميّة علاء الدين » فرع فارى فارى وطلبة وطالبات الجامعة الإسلاميّة الداريّة حسب المنهج المقرّر للعام الدراسي ١٩٧٣م أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها نافعةً ، إنه هو الوليّ الحميد .

فارى فارى ١٤ جمادى الثانية ١٣٩٥هـ

الحاج محمد عبده فباجه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

١ ـ آلم . ذٰلِكَ الكتابُ لاريبَ فيه هدًى للمتقين. البقرة

٢ ـ ونزّلنا عليك الكتابَ تِبياناً لكلِّ شيئٍ ، وهدًى ورحمةً

وبُشــرى للمسلمين . (النّحل : ٨٩)

٣ ـ إنّ هذا القرءان يَهدى لِلّتي هي أقْوَمُ، ويبشّـــرُ

المؤمنين الذين يعملون الصّالحات ، أنّ لهم أجْــراً

كبيراً . (الأسـراء : ٩)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم :

(إنّها سَتَكُوْنُ فِتَنٌ . قِيْلَ ، فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يارَسُوْلَ

اللهِ ؟ قَالَ ، كِتَابُ اللهِ ، فِيْهِ نَبَـؤُ مَاقَبْلَكُمْ ، وَخَـبَرُ

مَابَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَابَيْنَكُمْ ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ،

مَنْ تَرَكَـهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُـدٰى

فِي غَيْرِهِ اَضَلَّهُ اللهُ ، وَهُوَحَبْلُ اللهِ الْمَتِيْنُ ، وَهُـــوَ

الذِّكْرُ الْحَكِيْمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيْمُ ، وَهُوَ الَّذِي لاَ

تَزِيْغُ بِهِ الْأَهْـوَاءُ ، وَلاَتَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِـنَــةُ

وَلَاتَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَايَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلَاتَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، هُوَالَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) . مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .)

رواه الترمذي عن عليّ بن ابي طالب

مَبَادِئُ عِلْمِ أُصُولِ التَّفْسِيرِ

- حَدُّهُ : هُوَ عِلْمٌ بِهِ يُعْرَفُ أَحْوَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ مِنْ جِهَةِ الْإِسْنَادِ وَالنُّزُولِ وَغَيْرِهِ .
- مَوْضُوعُهُ : الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ حَيْثُ مَا يَعْرِضُ لَهُ حَالَ التَّفْسِيرِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِإِسْنَادِهِ وَنُزُولِهِ وَأَلْفَاظِهِ .
- اسْتِمْدَادُهُ : مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ، كَعِلْمِ الْأُصُولِ وَعِلْمِ الْقِرَاءَاتِ ، وَالْأَدَبِ وَغَيْرِهَا .

- مَسَائِلُهُ : قَضَايَاهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِسْنَادِهِ وَنُزُولِهِ وَأَلْفَاظِهِ .
- حُكْمُ الشَّارِعِ فِيهِ : الْوُجُوبُ الْكِفَائِيُّ عَلَى الْعُمُومِ ، وَالْوُجُوبُ الْعَيْنِيُّ عَلَى الْخُصُوصِ .
- نِسْبَتُهُ : التَّبَايُنُ .
- وَاضِعُهُ : شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْفَضْلِ جَلَالُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ الْبُلْقِينِيُّ ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٨٢٤ هِجْرِيَّةً .
- شَرَفُهُ : مِنْ أَشْرَفِ الْعُلُومِ ، إِذْ بِهِ يُعْرَفُ أَحْوَالُ كِتَابِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ رَحْمَةً وَهُدًى لِلنَّاسِ .
- ثَمَرَتُهُ : الْاِحْتِرَازُ عَنِ الْخَطَإِ فِي فَهْمِ كِتَابِ اللهِ الَّذِي لَايَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَامِنْ خَلْفِهِ .
- اسْمُهُ : عِلْمُ أُصُولِ التَّفْسِيرِ .

تَعَارِيفُ .

الْقُرْآنُ : هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصَاحِفِ الْمُتَعَبَّدُ

بتلاوته، المحفوظ في صدور من عُني به من المسلمين.

- السورة: هي الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم. وأقلها ثلاث آيات على القول الأصح.

- الآية: هي طائفة من كلمات القرآن، متميزة بفصل هو الفاصلة.

- من القرآن ما هو فاضل، كآية الكرسي وسورة الإخلاص، ومنه مفضول كسورة المسد لحديث البخاري (أعظم سورة في القرآن الفاتحة) ولحديث مسلم (أعظم آية في القرآن آية الكرسي).

- لا يجوز قراءة القرآن بغير لفظه العربي الذي أُنزل به وتعبدنا بتلاوته، سواء كان ترجمة أو تفسيرا. كذلك لا يجوز تلاوة القرآن بالمعنى ولو باللفظ العربي لأن جبريل عليه السلام أداه باللفظ، فلم يبح له أداؤه بالمعنى كالحديث.

- يحرم تفسير القرآن بالرأي، لحديث أبي داود: (من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار)، ولا يحرم تأويله إذا دل عليه دليل من القواعد للعارف بعلوم القرآن المحتاج إليها.

- واختلف العلماء في جواز كتابة القرآن بغير العربية والمشهور عدم جوازها، لأنها تخرجه عن الرسم الوارد المجمع على وجوب التزامه.

- ويجوز تفسيره بالترجمة، وترجمته بقصد التفهم والتفهيم، والتعلم والتعليم، للعالم الماهر في اللغتين العربية واللغة المترجم إليها.

تعريف الوحي لغة وشرعا

يطلق كلمة الوحي لغة على عدة معان. منها:

- الإيماء. قال في الأساس: أوحى إليه وأومأ إليه بمعنى، ووحيت إليه وأوحيت، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره. وأوحى الله إلى أنبيائه، وأوحى ربك إلى النحل.

- الإشارة السريعة، وذلك يكون على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة.
- الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره. ومنه الإلهام الغريزي، كالوحي إلى النحل، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة، الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى. ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان.

أما الوحي في لسان الشرع فمعناه: أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية، غير معتادة للبشر. ويكون على أنواع شتى: منه ما يكون مكالمة بين العبد وربه، كما كلم الله موسى تكليما. ومنه ما يكون إلهاما يقذفه الله في قلب مصطفاه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا، ولا يجد فيه شكا. ومنه ما يكون مناما صادقا يجيء في تحققه ووقوعه، كما يجيء فلق الصبح

في تبلجه وسطوعه. ومنه ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو ملك كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين. وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها. ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي، قال الله تعالى في سورة الشعراء: «نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين.»

كيفية نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم

ثم إن ملك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتى:
- فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية الملكية.
- وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه.
- وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى، ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة فيغط غطيط النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء وما هي بـ

شيء من الغشية والإغماء، إن هي إلا استغراق في لقاء الملك الروحاني، وانخلاع عن حالته البشرية العادية، فيؤثر ذلك على الجسم، فيعرق ويثقل ثقلاً شديداً، قد يتصبب منه الجبين عرقاً في اليوم الشديد البرد.

- وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في إذن سامعه، وذلك أشد أنواعه.

- وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دوي النحل، لكنهم لا يفهمون كلاماً، ولا يفقهون حديثاً.

أما هو - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه يسمع ويعي ما يوحى إليه، ويعلم علماً ضرورياً أن هذا هو وحي الله دون لبس ولا خفاء، ومن غير شك ولا ارتياب، فإذا انجلى عنه الوحي وجد ما أوحي إليه حاضراً في ذاكرته منتقشاً في حافظته، كأنما كتب في قلبه كتابة.

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرة في الكتاب والسنة. منها قوله تعالى « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ». ومنها الحديث الذي يرويه البخاري

في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى البخاري في صحيحه قال: حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء

فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد
قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى
خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار
حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ
قال، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني
فقال: اقرأ. قلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية
حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا
بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال:
اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق،
اقرأ وربك الأكرم. (اختصره هنا وزاد في التفسير) الذي
علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم." فرجع بها رسول
الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة
بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني
فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة
- وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسي. فقالت

خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً. إنك لتصل
الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف
وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى
أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن
عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان
يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية
ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي
فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك
فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول
الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى. فقال له ورقة
هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها
جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟ قال:
نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي،
وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب

ورقة أن توفي وفتر الوحي .

قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال . وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني ، فأنزل الله تعالى : يا أيها المدثر قم فأنذر .. إلى قوله والرجز فاهجر ، فحمي الوحي وتتابع .

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي نزل به جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم باللفظ العربي ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته المتحدى ببلاغته .. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .. أوحاه الله إلى رسوله

محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين . خاطب فيه القلوب بالموعظة ، والعقول بالدليل ، ولفت النظر إلى ما في الكون من آيات وعبر ، فانطلقت به الأفكار من قيودها ، وتحركت بعد خمودها وجمودها ، فاستبان الحق ، ووضح النهج ، وقامت الحجة ، وأزاحت الشبهة .

نزل القرآن على محمد بن عبد الله النبي الأمي الذي لم يتلق عن أستاذ ، ولم يجلس إلى فيلسوف ، ولم يتل من قبله كتابا ، ولم يخط بيمينه حرفا ، نزل تأييدا لدعوته ، وشاهدا بصدق رسالته ، فتحدى به العرب أجمعين . ولم يختص بذلك طائفة دون طائفة ، ولا قبيلا دون قبيل ، وقد كانوا أرباب الفصاحة ، و فرسان البلاغة ، النثر أنفس بضاعتهم ، والشعر أربح تجارتهم ، يقيمون له الأسواق ، ويتخاطبون به ويتفاخرون ، وكانوا يحرصون كل الحرص على التغلب عليه

صلى الله عليه وسلم وإبطال دعواه، ومع ذلك دعاهم
بأمر الله تعالى في آيات القرآن إلى المعارضة فقال:
« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » وقال: «وإن
كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين»
ولقد كان لهم أن يجمعوا من العقلاء والفصحاء من
شاءوا فيأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا حجته
ولكنهم لم يجترئوا على شيء من ذلك ولم يقدموا عليه
مع طول زمن التحدي، وإمعانهم في التكذيب والتعدي
وإذا عجز العرب عن المعارضة كان غيرهم أشد
عجزا، لهذا سجل الله هذا العجز على الإنس والجن
جميعا بقوله تعالى «قل لئن اجتمعت الإنس والجن
على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

※ إعجاز القرآن الكريم ※

قال الفيلسوف الأستاذ محمد فريد وجدي في
دائرة معارفه:

جهة إعجاز القرآن في نظرنا.

حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في
بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته، فكتبوا في ذلك
فصولا ضافية الذيول، وبعضهم خصها بالتآليف. وإننا
وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه
الوجهة، إلا أننا نرى أنها ليست هي الجهة الوحيدة لإعجازه
بل ولا هي أكثر جهات إعجازه سلطانا على النفس، فإن
للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطا محدودا يتعدى
حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا
الإعجاب والإقبال في الضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه
حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان
يحدثه في مبدإ تواردها عليها. وليس هذا شأن القرآن

فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً ، ولكنه
تسلط على النفس والمدارك ، فوجب على الناظر في ذلك أن
يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان
البعيد المدى الذي كان للقرآن على عقول الآخذين به .

الصلة في نظرنا واضحة لا تحتاج بكثير تأمل ، وهي
أن القرآن روح من أمر الله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك
روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان »
فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها
ويتسلط على أهوائها ، وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى
سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها . فقوله تعالى
« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » يكفي وحده في
إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن
عن الإتيان بمثله ، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة تتلألأ
في نورها الإلهي ، وتتألق في جمالها القدسي . ذلك
لما كان القرآن روحاً من أمر الله فلا جرم كانت له

روحانية) خاصة هي عندنا جهة إعجازه . والسبب
الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة
من سوره ، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند
سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهي .

إلى أن قال : « إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة
والحكمة والبيان روحانية يدركها من لا حظ له في
فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة . ألا ترى أن
الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو
بغير صوت حسن ، حتى إنهما ليكادان يفرقان ما هو
قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد التالي أن يغشهما .

هذه الروحانية تظهر ظهوراً جلياً عند ما تكون آية
من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس في
صفحة كبيرة ، فإنك ترى تلك الآية تنجلي لك من بين
السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس في رابعة النهار
مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ومنزلتها من

…مالِ الأسلوبِ وجزالةِ الألفاظِ .

هذه الروحانيةُ تظهرُ للعارفِ باللغةِ وللجاهلِ بها. …أما ظهورُها للعارفِ فبيّنٌ لا يحتاجُ لبيانٍ ، وأما ظهورُها …للجاهلِ بها من الأممِ الأعجميةِ فبتأثيرِها ونتيجتِها .

أيُّ إنسانٍ يرى أنّ العربيَّ الذي كان بالأمسِ جزّارًا …وتاجرًا أو راعيًا ، وهو من الجاهليةِ وعدمِ احترامِ الدستورِ …على ما كان يعلمُ الناسُ منه ، جاء اليومَ يقودُ جيشًا …يرغمُ به معاطسَ أكبرِ قوّادِ العالمِ من غطارفةِ الحربِ …ثمّ يدخلُ إلى أحشاءِ تلك الأممِ المغلوبةِ فيؤمّنها على دينِها …وشريعتِها وأموالِها وأعراضِها ، ويكونُ عليها أشفقَ من …رؤسائِها وأحنى من حكومتِها ، فينشرُ بينها العدلَ والإحسانَ …ويغمرُها بالإفضالِ والإنعامِ ، قلنا من ينظرُ إلى هذا …الأمرِ المدهشِ ولا يقرُّ بأنّ العربيَّ قد اكتسبَ روحًا …جديدةً لم تكن فيه من قبلُ ، وليست من جنسِ الأرواحِ …الموجودةِ في أعلياءِ النفوسِ وأصحابِ الفضيلةِ من الأفرادِ؟

كيف لا يستدلُّ هذا الإنسانُ بالحسِّ على تلك الروحانيةِ وقد أصبحَ يرجو من كان يخافُه ، ويتعلّمُ ممّن كان لا يرى أجهلَ منه ، ويتخلّقُ بأخلاقِ من كان لا يعدُّه إلا وحشيًّا كاسرًا .

هذا رأيُنا في جهةِ إعجازِ القرآنِ ، وهو فيما نعلمُ يحلُّ مشاكلَ هذا البحثِ ، ويمكنُ الاستدلالُ عليه بالحسِّ والواقعِ . (انتهى من دائرة المعارف المجلد السابع)

نزولُ القرآنِ الكريمِ .

نزلَ القرآنُ الكريمُ على قلبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أوّلَ ما نزلَ وهو يتعبّدُ في غارِ حراءَ ، فقد نزل عليه جبريلُ وهو في الغار فقال : اقرأ . قال صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارئٍ فأخذه فغطّه أي ضمّه حتى بلغَ منه الجهدَ ثمّ أرسله فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئٍ ، فغطّه الثانيةَ ثم أرسله فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئٍ ، فغطّه الثالثةَ ثم أرسله فقال : اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلقَ

خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم
بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.) فرجع بها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره، ثم فتر الوحي مدة
ثلاث سنين - على قول - وأربعين يوما على قول آخر
وجاءه جبريل عليه السلام بأول سورة المدثر
ثم تتابع الوحي.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا ينزل القرآن جملة
واحدة، بل نزله منجما في خلال ثلاث وعشرين سنة،
لتستعد القوى الإنسانية لتلقي هذا الفيض الإلهي
وتقوى على وعيه وفهمه. ولتتيسر كتابته وحفظه
فكانت آيات الأحكام وغيرها تنزل بحسب الوقائع والحوادث
ومقتضيات الأحوال، وما تحتاج إليه الأمة في حالتي الحرب
والسلم. وكان ذلك أحكم في التشريع، وأبلغ في التأييد
وأشد في التعجيز. وقد أوضحت الآية الكريمة هذه
الحكم في قول الله تبارك وتعالى «وقرآنا فرقناه

لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا». وقوله
سبحانه، «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة
واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا.»
وبيان ذلك أن في نزول القرآن منجما تثبيتا لفؤاد
النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية لقلبه، ففي تجدد
الوحي وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم سرور يملأ قلبه وغبطة
تشرح صدره، وفيه كذلك التيسير من الله في حفظ
القرآن وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه، والتدرج
في تربية هذه الأمة الناشئة علما وعملا. يضاف
إلى ذلك أن ارتباط الآية بالحادثة، واقتران الحكم
بسببه من دواعي الحرص على القرآن والحفظ له من
الضياع، والاطمئنان إلى خلوده على الزمن وبقائه
في صحائف التاريخ.

وفي نزوله منجما إتاحة لفرصة المعارضة

وامتداد لأمد التحدي، ليزيد الإرغام، ويتحقق الإلزام.
وتقوى الحجة، وفيه مسايرة للحوادث والطوارئ
في تجددها وتفرقها، فكلما جد جديد نزل القرآن
مناسبا له، وفصل الأحكام التي توافق ما يجد
من أمور الناس ومشكلاتهم، والإجابة عن أسئلتهم
كما قال الله تعالى في جواب سؤال من أسئلة أعداء الرسول
الكريم «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما
أوتيتم من العلم إلا قليلا.»

هذا. وقد نزلت آية من أواخر ما نزل من القرآن
على النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع والناس
وقوف بعرفة، ورسول الله رافع يده إلى السماء،
والمسلمون متجهون إلى الله بالدعاء، وهي قوله تعالى
«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت
لكم الإسلام دينا». وكان بين نزولها ووفاته صلوات
الله وسلامه عليه إحدى وثمانون ليلة.

وأما آخر آية نزلت من القرآن الكريم ولم ينزل بعدها منه
شيء فهي قوله تعالى: «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم
توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون». نزلت قبل أن
يلحق صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى ببضع
ليال.

نزول القرآن بحسب الوقائع والمناسبات.

قال تعالى: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على
مكث ونزلناه تنزيلا». وقال جل شأنه: «وقال الذين
كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت
به فؤادك ورتلناه ترتيلا.»

من هذا يتبين أن القرآن لم ينزل على النبي صلى الله
عليه وسلم جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى
عليه السلام، بل كان ينزل وفقا للحوادث، وبيانا لحكم
ما عرض من الوقائع، أو جوابا لأسئلة واستفتاءات.
فمن الأول قوله تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن»

الآيةَ. فإنها على ما قال العلماء، نزلت في شأن مرثد الغنوي، وقد بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليحمل منها المستضعفين من المسلمين، فعرضت امرأة مشركة عليه أن يبيت عندها وكانت ذات جمال ومال، فأعرض عنها خوفاً من الله، ثم أقبلت عليه تريد منه أن يتزوجها، فقبل على شرط أن يرجع بالأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رجع إليه سأله أن يأذن له في التزوج بها فنزلت الآية.

ومنه قوله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما) وآيات بعدها، فإنها نزلت في شأن رجل من بني ظفر يقال له طعمة بن أبيرق، وكان قد سرق درعاً من جار له يدعى قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود. فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف

ما أخذها، ولا له علم بها، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها. فقال: دفعها إلي طعمة، وشهد له ناس من اليهود. فقال بنو ظفر انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي، فنزلت الآيات.

ومن الثاني (يسألونك عن اليتامى) و(يسألونك ماذا ينفقون) و(يسألونك عن المحيض) و(يستفتونك في النساء) و(يسألونك عن الأنفال). وقلما كان ينزل القرآن ابتداء غير مسبوق بحادثة أو استفتاء، غير أنه قد يأتي مع جواب السؤال أو حكم الواقعة حكم آخر يكون له بالحكم الأول ارتباط كبير. فمن ذلك قوله تعالى (ويستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم فيهن) الآية فإن السؤال كان عن التزوج باليتامى من النساء، فأجيبوا عن ذلك مع زيادة حكم الإحسان إلى الولدان والعدل

في اليتامى . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركين
حتى يؤمنوا) الآية . فإنها نزلت مع الآية الأولى التي سببها
قصة مرثد الغنوي كما علمت .

نزول القرآن منجماً وحكمة ذلك .

ظل القرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
منجماً حسب الوقائع والمناسبات ، فتارة تنزل عليه سورة
بجملتها كما في الفاتحة ، وكما في الأنعام ، فإنها نزلت كلها دفعة
بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة . وتارة تنزل عليه
عشر آيات كما في قصة الإفك وأول سورة المؤمنين ، وتارة
خمس آيات وذلك كثير . وقد صح أنه نزل عليه بعض
آية ، وذلك كما في قوله تعالى : (غير أولي الضرر) فإنه
نزل بعد ما نزل قوله تعالى : (لا يستوي القاعدون من
المؤمنين) . وكقوله تعالى : (وإن خفتم عيلة فسوف
يغنيكم الله من فضله إن شاء . إن الله عليم حكيم)
فإنه نزل بعد (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس

فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) . وما زال الأمر
هكذا حتى كملت الشريعة بتمام نزول القرآن .

وقد ذكر العلماء وجوهاً في حكمة إنزاله منجماً

منها : أنه أنزل هكذا ليقوى به قلب الرسول فيعيه
ويحفظه ، فإنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ
ولا يكتب ، أما غيره من الرسل السابقين فقد كانوا
كاتبين قارئين ، يمكنهم أن يضبطوا ويحفظوا ما
ينزل عليهم من الكتب جملة . وهذا ما أشار الله إليه
بقوله : (كذلك لنثبت به فؤادك) .

ومنها : اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون في القرآن
ما هو ناسخ وما هو منسوخ ، وهذا لا يتأتى إلا فيما ينزل
متفرقاً .

ومنها : اقتضت الحكمة أن يكون منه ما هو جواب
لسؤال ، وما هو بيان لحكم حادثة ، ليكون ذلك
أبعث على القبول ، وأدعى للامتثال ، ولا يتأ

ذلك إلا إذا نزل مفرقاً.

ومنها: أن في تفريقه رحمة بالعباد، فإنهم كانوا قبل الإسلام في إباحة مطلقة، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف، فتنفر قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي. ويوضح ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا.)

بقي التوفيق بين قوله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وما علمته من نزول القرآن منجماً، وأقرب وجوه التوفيق أن نقول: معنى نزوله في ليلة القدر أن ابتداء نزوله كان فيها، فالضمير في (أنزلناه) للقرآن، ولا شك أن ابتداء نزول القرآن كان في تلك الليلة كما عرفت

فائدة العلم بأسباب النزول

قد مر بك أن القرآن كان ينزل بحسب الوقائع والمناسبات وتلك هي المسماة بأسباب النزول، وللعلم بهذه الأسباب أهمية كبرى في تفسير القرآن وفهمه على الوجه الصحيح، فإنها قرائن معنوية يستعان بها على أن يفهم القرآن حق الفهم، وأن تعرف أسراره ومراميه أحسن معرفة. ويظهر ذلك جلياً من المثالين الآتيين:

١ـ روي عن مروان بن الحكم أنه أشكل عليه معنى قوله تعالى: «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم» حتى قال: لئن كان كل امرئ فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون. فلما بين له ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروه أنهم قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه. لما بين له ذلك زال عنه الإشكال.

٢ - وَرُوِيَ أَنَّ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ اتُّهِمَ بِشُرْبِ الْخَمْرِ وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ عِنْدَ عُمَرَ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا قُدَامَةُ إِنِّي جَالِدُكَ ! قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ شَرِبْتُ كَمَا يَقُولُونَ مَا كَانَ لَكَ أَنْ تَجْلِدَنِي . قَالَ عُمَرُ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ ... » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . فَأَنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ وَالْمَشَاهِدَ . فَقَالَ عُمَرُ أَلَا تَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ أُنْزِلَتْ عُذْرًا لِلْمَاضِينَ وَحُجَّةً عَلَى الْبَاقِينَ ، فَعُذْرُ الْمَاضِينَ أَنَّهُمْ لَقُوا اللَّهَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَمْرُ ، وَحُجَّةٌ عَلَى الْبَاقِينَ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ . فَإِنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَى أَنْ تُشْرَبَ الْخَمْرُ . قَالَ عُمَرُ : صَدَقْتَ .

انتهت الكراسة الأولى ويليه إن شاء الله الكراسة الثانية .